خطبة صلاة الجمعة 4/7/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(نسألك الثبات –1–)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27]

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 66 – 68]

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7]

عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه أنّه قال: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول في صلاته: **«اللهمّ إنّي أسألك الثّبات في الأمر والعزيمة على الرُّشْدِ، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم»** [النسائي وهذا لفظه. والترمذي، وأحمد]

أيها الإخوة:

كل عام وأنتم بخير، تحدثكم خُطَبُ رمضانَ الأربع عن الثباتِ على الحق، والاستقامةِ على البر، والصبرِ على الطاعة، والتمسكِ بالكتاب والسنة.

في زمنٍ كثُرت فيه الفتنُ، وزادتْ فيه الشهواتُ، وترعْرَعتِ الشكوكُ والشبهاتُ، فراح المسلمُ القابضُ على دينه يبحث فيه عن عاصمٍ، ويفتشُ عن مثبِّت.

عنوان السلسلة (نسألك الثبات)

ثبَتَ الشيءُ: دامَ واستقرَّ، وتدور معاني الثبات في اللغة حول التمكُّن والاستقرار والدوام الذي هو ضدُّ الحركة والارتجاج.

الثباتُ في الاصطلاح: هو التمكُّنُ والاستقرارُ في الموضع الذي تزلُّ فيه الأقدامُ والقلوب.

أو هو عدمُ احتمال الزَّوال بتشكيك المشكِّك.

والثباتُ المرادُ في هذه الخطَبِ الأربع: الاستمرارُ في طريق الهداية، والالتزامُ بمقتضياتِ هذا الطريق، والمداومةُ على الخير، والسعيُ الدائم للاستزادة، ومهما فتر المرءُ فهنالك مستوىً معينٌ لا يُقبَلُ التنازلُ عنه أو التقصيرُ فيه، وإن زلَّت قدمُهُ فلا يلبثُ أن يتوب، وربما كان بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

ذلك هو حالُ المتصف بخُلُق الثبات.

وردتْ آياتٌ كثيرةٌ على الثبات في القرآن الكريم، منها ما ورد في مطلَع الخطبة:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7]

وغيرها كثير:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32] ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120] ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: 12]

فالثباتُ نعمةٌ من الله عظيمةٌ، يعطيها المختارين من عباده، فلا يزلُّ أحدُهم في مواطن الزللِ والانزلاق، ولا يسقُطُ في مواطن الشبهاتِ والشهوات، روى الإمامُ أحمدُ بسندٍ حسنٍ عن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا**

جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلادِهَا. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ. قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ»

قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ)

إنه ثباتٌ على الحق في موضع زلزلة وزمن فتنة وابتلاء.

يقول ابنُ الجوزي: (مَن أراد أن تدومَ له السلامةُ والعافية من غير بلاءٍ فما عرف التكليفَ، ولا أدرك التسليم.... والمكروهُ قد يأتي بالمحبوب، والمرغوبُ قد يأتي بالمكروه، فلا تأمنْ أن توافيَك المضرةُ من جانب المسرَّة، ولا تيأس أن تأتيَك المسرةُ من جانب المضرة، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216] .... وطريق الابتلاء مَعبرٌ شاقٌّ، تعبَ فيه آدم، ورُمي في النار الخليل، وأضجِعَ للذبح إسماعيلُ، وأُلقيَ في بطنِ الحوتِ يونسُ، وقاسَى الضرَّ أيوبُ، وبيعَ بثمنٍ بخسٍ يوسفُ، وألقيَ في الجبِّ إفكاً وفي السجن ظلماً، وعالجَ أنواعَ الأذى نبيُّنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم، وأنت على سنة الابتلاء سائر.

والدنيا لم تصفُ لأحد ولو نالَ منها ما عساه أن ينال يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يصب منه» [رواه البخاري] قال بعض أهل العلم: (من خلقه الله للجنة لم تزل تأته المكاره).

والمصيبةُ حقاً إنما هي المصيبةُ في الدين، وما سواها من المصائب فهي عافيةٌ، فيها رفعُ الدرجات، وحطُّ السيئات، والمصابُ من حُرِم الثواب).

أرأيتم -أيها الإخوة- إلى دعائكم كل يوم مرات ومرات وأنتم في صلاة السنة أو الفريضة: (اهدنا الصراط المستقيم). ما معناه؟

ألستُم على الصراط المستقيم ومن أهل الهداية؟

إذاً ما معنى قولكم: (اهدنا الصراط المستقيم)؟

قال المفسرون: لها معنيان، وكلاهما ينصبَّان في معنى الثبات. أما المعنى الأول: فثبّتنا على الصراط المستقيم. وأما الثاني: فزدنا هدايةً في هذا الصراط.

ثبتنا على الصراط المستقيم؛ لأننا نسمع أناساً في الأزمة والشدة يقولون: أين الله؟

ثبتنا على الصراط المستقيم؛ لأننا نرى أناساً كانوا على درب الهدايه فجاءتْ شهوةُ المال أو شهوةُ الجاه أو شهوةُ النساء فأخذتهم من درب الهدايه ليتيهوا في وحول الشهوات.

ثبتنا على الصراط المستقيم؛ لأنَّنا نتعرض في كل يوم لشُبَهٍ ووساوسَ تُلقى من هنا وهناك؛ لتأخذَ شبابنا من طريق الإيمان إلى طريق الكفر، ولتوحي لبناتنا بالضلال بعد الهدى.

كان أكثرُ دعاءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«يا مقلب القلوب ثبتْ قلبي على دينك»** قالت أمُّ سلمة: قلت: يا رسول الله، ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال: **«يا أم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ»** [الترمذي]

فتلا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8]

أيها الإخوة:

بين الثباتِ والصبرِ والاستقامة تداخلٌ وتكامل:

فالثباتُ: هو التمكُّن والاستقرار في الموضع الذي تزلُّ فيه الأقدام والقلوب.

والصبر: هو حبسُ النفس على ما تكره للوصول إلى ما تحب من الخير.

وعرف الاستقامة سيدُنا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: (أَنْ تَسْتَقِيمَ عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. وَلَا تَرُوغَ رَوَغَانَ الثَّعَالِبِ).

أقول بين الثبات والصبر والاستقامة تداخلٌ وتكامل، وثلاثتها محمودةُ العاقبة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ **[فصلت: 30]**

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 96].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 65 - 68]

قال أحد العلماء:

(الدين مدارُه على أصلين: العزم، والثبات، وهما الأصلان المذكوران في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: **«اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»**

وأصلُ الشكر صحةُ العزيمة، وأصلُ الصبر قوةُ الثبات، فمتى أُيِّد العبدُ بعزيمةٍ وثباتٍ فقد أُيِّد بالمعونة والتوفيق)

فيا أيها الإخوة: الثباتَ الثباتَ على الخير، والاستقامةَ الاستقامةَ على البرِّ، والصبرَ الصبرَ على الطاعة.

ربما عُرِض على واحدٍ فينا مالٌ من الحرام، فليذكُرِ العهد الذي بينه وبين ربه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: 172] وأصلُ الطيباتِ الحلالُ لا الحرام.

ربما تعرَّض شابٌّ لفتاةٍ تغويه، أو تعرضَتْ فتاةٌ لشابٍّ يرديها فليتذكَّرا عهد الله إليهما ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ﴾ [الأعراف: 33]

ربما افتُتِنَ رجلٌ في دينه، فليذكرْ أن اللهَ يحميه من كل شيءٍ، وأنَّ كلَّ شيءٍ لا يستطيع أن يحميه من الله تعالى.

ربما شعر امرؤٌ صالحٌ بالغربة بين كثيرٍ من غير الصالحين، وربما رأى خيِّرٌ نفسَه غريباً بين كثيرٍ ليسوا بخيِّرين، فليذكرْ أنه من جماعة (اهدنا الصراط المستقيم) وأنَّ مرادَهُ رضى الرحمن، وأنَّ مُناهُ النظرُ إلى وجهه الكريم في الجنة.

أنشد أحد الصالحين:

واللهِ لــو يمحــو الزمــانُ فضــائلاً ... ويُبــيدُ مِن طيبِ الخصــال شمائلا
وتَغَيَّرتْ قيَمُ الأنام إلى الــــــردى ... وتبــدَّلتْ شِــيَمُ الكــرامِ رذائــلا
ورأيتُ مَنْ باعَ الأصــالةَ يرتــدي ... ثوباً غــــريباً مشــــمئزّاً مائــــلا
سأظلُّ وحـدي طـولَ عُمـري ثابتـاً ... لا أرتضــي للمَكــرُماتِ بدائــلا

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو: «**ربّ أعنّي ولا تُعِنْ عليَّ، وانصرني ولا تنصرْ عليَّ، وامكرْ لي ولا تمكُر عليَّ، واهدني ويسّرْ هُدايَ إليّ، وانصرني على مَن بَغى عليّ، اللهمّ اجعلني لك شاكراً، لك ذاكراً، لك راهباً، لك مطواعاً، إليك مخبتاً، أو منيباً، ربّ تقبَّل توبتي واغسل حوبتي، وأجبْ دعوتي، وثبّتْ حُجّتي، واهدِ قلبي، وسدّدْ لساني، واسلُل سخيمة قلبي**» [أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح]

والحمد لله رب العالمين